



31.1.2015

أنطون تشيخوف

الأعمال المختارة

المجلد الأول

الأعمال القصصية





الأعمال المختارة

المجلد الأول
الأعمال القصصية

دار الشروق

انطو تشخوف

الطبعة الأولى ٢٠٠٩

رقم الإيداع: ٢٠٠٧/٢٢٧٣٨
ISBN 978-977-09-2212-4

جميع حقوق الطبع محفوظة

© دار الشروق

٨ شارع سيبويه المصري

مدينة نصر - القاهرة - مصر

تليفون: ٢٤٠٢٣٣٩٩

فاكس: ٢٤٠٣٧٥٦٧ (٢٠٢)

e-mail: dar@shorouk.com

www.shorouk.com

رسالة مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم

عزيزى القارئ

فى عصر يتسم بالمعرفة والمعلوماتية والانفتاح على الآخر، تنظر مؤسسة محمد ابن راشد آل مكتوم إلى الترجمة على أنها الوسيلة المثلى لاستيعاب المعارف العالمية، فهى من أهم أدوات النهضة المنشودة، وتؤمن المؤسسة بأن إحياء حركة الترجمة، وجعلها محركاً فاعلاً من محركات التنمية واقتصاد المعرفة فى الوطن العربى، مشروع بالغ الأهمية ولا ينبغى الإمعان فى تأخير هـ .

فمتوسط ما تترجمه المؤسسات الثقافية ودور النشر العربية مجتمعة، فى العام الواحد، لا يتعدى كتاباً واحداً لكل مليون شخص، بينما تترجم دول منفردة فى العالم أضعاف ما تترجمه الدول العربية جميعها .

أطلقت المؤسسة برنامج «ترجم»، بهدف إثراء المكتبة العربية بأفضل ما قدّمه الفكر العالمى من معارف وعلوم، عبر نقلها إلى العربية، والعمل على إظهار الوجه الحضارى للأمة عن طريق ترجمة الإبداعات العربية إلى لغات العالم .

ومن التباشير الأولى لهذا البرنامج إطلاق خطة لترجمة ألف كتاب من اللغات العالمية إلى اللغة العربية خلال ثلاث سنوات، أى بمعدل كتاب فى اليوم الواحد .

وتأمل مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم فى أن يكون هذا البرنامج

الاستراتيجية تجسيدا عملياً لرسالة المؤسسة المتمثلة فى تمكين الأجيال القادمة من ابتكار وتطوير حلول مستدامة لمواجهة التحديات ، عن طريق نشر المعرفة ، ورعاية الأفكار الخلاقة التى تقود إلى إبداعات حقيقية ، إضافة إلى بناء جسور الحوار بين الشعوب والحضارات .

للمزيد من المعلومات عن برنامج «ترجم» والبرامج الأخرى المنضوية تحت قطاع الثقافة ، يمكن زيارة موقع المؤسسة www.mbrfoundation.ae

عن المؤسسة

انطلقت مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم بمبادرة كريمة من صاحب السمو الشيخ محمد بن راشد آل مكتوم نائب رئيس دولة الإمارات العربية المتحدة رئيس مجلس الوزراء حاكم دبي ، وقد أعلن صاحب السمو عن تأسيسها ، لأول مرة ، فى كلمته أمام المنتدى الاقتصادى العالمى فى البحر الميت -الأردن فى أيار/ مايو ٢٠٠٧ . وتحظى هذه المؤسسة باهتمام ودعم كبيرين من سموه ، وقد قام بتخصيص وقف لها قدره ٣٧ مليار درهم (١٠ مليارات دولار) .

وتسعى مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم ، كما أراد لها مؤسسها ، إلى تمكين الأجيال الشابة فى الوطن العربى ، من امتلاك المعرفة وتوظيفها بأفضل وجه ممكن لمواجهة تحديات التنمية ، وابتكار حلول مستدامة مستمدة من الواقع ، للتعامل مع التحديات التى تواجه مجتمعاتهم .

المحتويات

١١	مقدمة
٢٢	رسالة إلى جارى العالم
٢٧	فرحة
٣٠	وفاة موظف
٣٤	البدین والنحیف
٣٧	الحرباء
٤٢	حلة النقيب
٥١	المصيبة
٥٨	جهاز العروس
٦٦	دموع لا يراها العالم
٧٣	مع سبق الإصرار
٧٩	الكبش والأنسة
٨٣	ابنة البيون
٨٩	المغفلة
٩٣	القناع
١٠١	الصول بريشيببييف
١٠٧	الصبى الشرير
١١١	وحشة
١١٩	مزحة

١٢٥	فانكا
١٣٠	هرج
١٤١	الذئب
١٥١	عند زوجة رئيس النبلاء
١٥٧	العازف الأجير
١٦٤	تواريخ حية
١٦٨	زودها
١٧٤	الدبلوماسى
١٨٠	الخطيب
١٨٥	تحفة فنية
١٩١	أجافيا
٢٠٦	المتمارضون
٢١٠	السعيد
٢١٩	أنبوتا
٢٢٦	كلخاس
٢٣٥	البربوط
٢٤٣	الصياد
٢٥٠	فى البيت الريفى
٢٥٨	توافه الحياة
٢٦٦	الأعداء
٢٨٤	مغنية الكورس
٢٩٢	فى البيت
٣٠٥	الصبيان
٣١٥	المعلم

٣٢٥		فولوديا
٣٤٣		الزوج
٣٥٠		الأطفال
٣٥٩		الهارب
٣٧٠		بعد المسرح

مقدمة

عندما تولد الموهبة

حين طُلب من تشيخوف كتابة سيرة ذاتية لنشرها فى دليل عن خريجى كلية الطب بجامعة موسكو خلال الفترة من ١٨٨٤ إلى ١٨٩٤ رد الكاتب بأنه «مصاب بداء الخوف من السير الذاتية» وأضاف «إنه لعذاب حقيقى أن أقرأ أى تفاصيل عنى . . فضلا عن كتابتها بنفسى للنشر» ، وأرفق بهذه الرسالة سيرة ذاتية قصيرة للغاية عرض فيها رأيه حول العلاقة بين الأديب والعلم ، أكثر مما كتب عن تفاصيل حياته الشخصية أو إبداعه .

وقد راودنى نفس الإحساس المعذب عند كتابة هذه المقدمة عن تشيخوف بمناسبة صدور هذه المجموعة من أعماله عن «دار الشروق» . فكيف تكتب عن مبدع كبير معروف على نطاق العالم كله منذ بزوغه فى سماء الأدب الروسى فى ثمانينيات وتسعينيات القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين حتى هذه الأيام؟ وكيف تقدمه للقراء العرب ومنهم من يعرف عن أدبه وحياته الكثير من التفاصيل؟ وما العمل من أجل ألا تخرج هذه المقدمة فى صورة تقريرية تتناول حياته وأدبه بنبرة البحث العلمى الجافة ، أو أن تجنح إلى الاعترافات العاطفية بالحب لهذا الفنان المدهش وأدبه الأكثر إدهاشا؟ وأخيرا قررت أنه ليس هناك ما هو أفضل من الدرب المعهود والطريق المطروق ، وهو الحديث عن تشيخوف الفنان وتشيخوف الإنسان ، الأمر الذى يتيح لنا أن نجتمع بين الموضوعية والذاتية فى سبيكة واحدة ، إذا حاللنا التوفيق بطبيعة الحال .

خرج أنطون تشيخوف إلى الدنيا فى ٢٩ يناير ١٨٦٠ ، ورحل عنها فى ١٥ يوليو ١٩٠٤ ، وخلال هذا العمر القصير (٤٤ سنة) والعمر الأدبى الأقصر (٢٤ سنة) ترك لنا إرثاً أدبياً خالداً من القصص القصيرة والروايات والمسرحيات التى أحدثت انقلاباً حقيقياً فى القصة القصيرة والأدب المسرحى . وليس غريباً ، لهذا السبب ، أن يظل تشيخوف معاصراً حتى اليوم ، وأن يحاول المخرجون فى شتى دول العالم إعادة قراءة مسرحياته الشهيرة وحل ألغازها عاماً بعد عام على خشبات المسارح ، التقليدية والتجريبية ، الكلاسيكية منها والطليلية .

كان أنطون (اسم التدليل : أنطوشا) الابن الثالث فى عائلة التاجر الصغير بافل تشيخوف ، الذى كان يملك حانوت بقالة فى مدينة تجانروج على شاطئ بحر آزوف فى جنوب روسيا . وقد سبقه إلى الدنيا أخوه ألكسندر (الذى أصبح فيما بعد أديباً) ونيكولاى (الذى أصبح مصوراً) وتلاه إيفان (مدرس) وميخائيل (أديب) وأخته ماريا التى عملت مدرسة وكانت موهوبة فى التصوير وأصبحت اليد اليمنى للكاتب فى حياته وحافظت على تراثه بعد مماته .

لم يعيش أنطوشا طفولة سعيدة فى هذه الأسرة الموهوبة ، فقد كان الأب يجبره مع إخوته على العمل فى الحانوت ، فكان يقف بالساعات على قدميه فى الحانوت البارد مغالبا الرغبة فى اللهو والنوم . وفى أيام الآحاد والأعياد الدينية - وما أكثرها - كان الأب يجبره على الغناء فى كورال الكنيسة ، مصاحباً طقوس الصلوات المضنية الطويلة . ولهذا قال تشيخوف فيما بعد «فى طفولتى لم تكن لدى طفولة» . وانتهت هذه الطفولة الشقية بهاية تعيسة . فقد أفلس الأب ، وهرب سرا من الدائنين إلى موسكو . ثم لحقت به عائلته ما عدا أنطون ، الذى بقى ليكمل تعليمه الثانوى ، وظل وحيداً طوال ثلاث سنوات يكسب رزقه بإعطاء الدروس الخاصة ، ويقتصد

من هذا الكسب الضئيل بعض المال ليرسله إلى موسكو مساعدة لوالديه وإخوته .

فى عام ١٨٧٩ أنهى أنطون تشيخوف المدرسة ورحل إلى موسكو حيث التحق بكلية الطب بجامعة موسكو وتخرج فيها عام ١٨٨٤ ومارس مهنة الطب فترة قصيرة .

وقد تفتحت موهبة الأديب وهو بعد فى الصف الأول بكلية الطب ، فشرع فى كتابة الفكاهيات والقصص القصيرة الساخرة والمشاهد المضحكة ونشرها فى الصحف والمجلات الأسبوعية الفكاهية فى موسكو وبطرسبرج وكان يوقعها بأسماء مستعارة (أشهرها : أنطوشا تشيخونتى) . ويمكن تأريخ البداية الإبداعية لتشخوف بعام ١٨٨٠ الذى نشرت فيه قصته القصيرة «رسالة إلى جارى العالم» ثم ظهرت أول مجموعة قصص قصيرة «حكايات ملبومينا» (عام ١٨٨٤)، ثم توالى المجموعات : «قصص منوعة» (١٨٨٦)، «فى الغسق» (١٨٨٧)، «أحاديث بريئة» (١٨٨٧)، «قصص قصيرة» (١٨٨٨) «أناس عابسون» (١٨٩٠) .

يشير النقاد والمؤرخون إلى أن فترة الثمانينيات (حتى بداية التسعينيات) من القرن التاسع عشر كانت من أشد الفترات ظلاما ورجعية فى تاريخ روسيا الحديث . فقد فشل مشروع الإصلاح الذى تبناه القيصر ألكسندر الثانى ، عندما أصدر مرسوم تحرير عبيد الأرض (الفلاحين) عام ١٨٦١ ، وأفلس حركة «الشعبيين» الثورية ودخلت طريقا مسدودا فتبنى جناحها المتشدد أسلوب الاغتيال الفردى . وبالفعل اغتيل القيصر ألكسندر الثانى عام ١٨٨١ ، وبالطبع لم يؤد ذلك إلى تحسين الأوضاع ، بل زادها سوءا ، وتراجعت السلطة حتى عن الحد الأدنى من الحريات الذى كان موجودا ، وتوالى الإجراءات القمعية ضد الحكم المحلى (الزيمستفو) فى الأرياف والأقاليم فوضع تحت إشراف المحافظين المباشر وألغى مبدأ الانتخاب فيه ، وفرضت رقابة صارمة على الصحف والمجلات بصدر قانون النشر الجديد

عام ١٨٨٢ الذى أباح إغلاق المجلات بسبب اتجاهها العام وليس فقط بسبب مقال محدد، وألزمها بإبلاغ السلطات بالأسماء الحقيقية للكتاب الذين ينشرون بأسماء مستعارة. وألغى الاستقلال النسبى الذى تمتعت به الجامعات، ووضعت القيود على دخول المدارس الحكومية لأبناء الفقراء والفئات الدنيا. وفى عام ١٨٨٤ أغلقت مجلة «مذكرات وطنية» التى كان يرأس تحريرها الكاتب الروسى الساخر الكبير سالتيكوف - شيدرين والتى كانت منبر الكتاب الديمقراطيين الروس.

فى هذه الفترة العصبية الخائفة بدأ «أنطوشا تشيخونتى» فى نشر قصصه واستكشاته المرحية وفكاهياته «البريئة» اللاهية فى المجلات الفكاهية المعروفة آنذاك: «الجرادة» و«المنبه» و«شطايا» التى كانت لا تستهدف سوى إضحاك القراء وتسليتهم وتطلب من كتابها الالتزام بهذا الهدف ذاته. ولكن موهبة تشيخوف كانت أكبر من أن تبقى أسيرة هذه القيود. وشيئا فشيئا تبرز فى قصصه القصيرة الفكاهية جوانب السخرية اللاذعة من عبدة المناصب والألقاب والمنافقين («البدين والنحيل»)، («الحرباء») وذوى الطباع الفظة الذين يستعذبون إهانة الضعفاء («القناع»)، («الكبش والأنسة») وضعاف النفوس الذين يستسلمون لمصائيرهم دون محاولة احتجاج («المغفلة»)، («أنبوتا»). وتمتد سخرية تشيخوف إلى المسحوقين أنفسهم، فهو يسخر من «العبيد الصغار» الذين يجدون قمة اللذة والسعادة فى إهانة السادة وإذلالهم لهم وقسوتهم عليهم. («حلة النقيب»)، والذين يموتون خوفا من غضب الرؤساء («وفاة موظف»)، وأصحاب النفوس الصغيرة التافهة الذين يفرحون لنشر أسمائهم فى الصحف حتى ولو كان ذلك بسبب دهس عربات الخيل لهم («فرحة»)، والشخصيات المشوهة، وليدة المجتمع الظالم الذى يفرخ «الجواسيس المتطوعين» الذين يريدون «منع كل شئ» و«الإبلاغ عن كل الناس» («الصول برشببيف»). والشرطى المتقاعد («حالات جنون العظمة») الذى يحبس القطط والكلاب

والدجاج فى صناديق لفترات محددة، ويسجن البق والصراصير والعناكب فى زجاجات ويحاول إقناع أهل بلدته بدخول الحجز مقابل نقود!

وفى هذه المرحلة تتجلى النبوة الوجدانية الحزينة فى قصص تشيخوف القصيرة عن أحزان «الغلابة» التى لا يريد أن يسمعها أحد («وحشة») ومأسى الصنّاع المهرة الذين تقضى الفودكا على كل ما هو طيب فيهم وتمضى حياتهم كأنها فى غيبوبة («المصيبة»). ويرسم تشيخوف لوحة إنسانية عريضة لشتى النماذج البشرية من مختلف درجات السلم الاجتماعى، ويبلغ بها مستوى عالياً من التعبيرية والرمزية كما فى قصة «الرجل المقلب»^(١).

كان تصوير تشيخوف للشوّهات النفسية والأخلاقيات المتردية فى تلك الفترة (ثمانينيات القرن) يفضى بالقارئ مباشرة إلى استنتاج واحد: أن كل هذه الفظاظة، وهذا النفاق والابتذال والضعة والطغيان... إنما هى ثمرة الأوضاع الاجتماعية المختلة التى يكرسها النظام القائم ويسبغ عليها ثياب الشرعية والديمومة. ولا عجب إذاً أن تنتبه الرقابة «اليقظة» إلى هذه المعانى فتمنع صدور أولى مجموعات الأديب القصصية، وتواصل تدخلها فى كل ما يكتب.

ويجذب الأديب اهتمام القراء وزملائه بتحفته الأولى «السهب» فى جنس الرواية القصيرة (النوفيل) والتى ظهرت عام ١٨٨٨ مؤذنة بشق طريق إبداعى جديد لموهبة كبيرة، حيث لا تلعب الأحداث أو الحبكة الروائية الدور الرئيسى، بل يلعب المزاج العام للقصة، ولوحات السهب الشاسعة بأفاقها اللا محدودة وسحرها الخاص، وكأنما يرمز الكاتب إلى وطنه روسيا وقوته وجماله، وتطلعه إلى مستقبل أسعد. ويمتزج التفاؤل

(١) القصص المشار إليها فى هذه المقدمة مترجمة فى هذه المجموعة باستثناءات قليلة - (المعرب).

والفرحة بالحزن العميق الأغوار، وترن النبرة الوجدانية كموسيقى حزينة خافتة مصاحبة للسياق العام للرحلة عبر هذه السهوب المترامية. فلا تدرى هل أنت أمام منظر طبيعي رسمه مصور بارع أم سيمفونية صاغها موسيقار مبدع!

ولعل موهبة تشيخوف فى مرحلة إبداعه الأولى (١٨٨٠ - ١٨٩٣) لم تتجل بهذه القوة والعمق كما تجلت فى روايته التالية لـ «السهوب» («حكاية ملة») التى صدرت عام (١٨٨٩) والتى طرح فيها بقوة فكرة اللامبالاة وخطرها على الروح الإنسانية، واضعا فى بؤرة الرواية أستاذا شهيرا فى الطب بجامعة موسكو، يراجع حياته بعد إصابته بالسرطان وتقاعدته. لقد أثارت الرواية إعجاب الكثيرين. وكتب الأديب الألمانى الحائز على جائزة نوبل توماس مان عنها:

«إنها شىء غير عادى تماما، شىء ساحر، لن تجد له مثيلا فى الأدب كله. فقرة تأثيرها وميزتها فى نبرتها الخافتة الحزينة. إنها حكاية تشير الدهشة على الأقل لتسميتها «بالملة» فى حين أنها تهزك هذا. وعلاوة على ذلك فقد كتبها شاب لم يبلغ الثلاثين من عمره. ورويت بأقصى نفاذ على لسان عالم عجوز، ذى شهرة عالمية»

فى عام ١٨٩٠ يقرر أنطون تشيخوف القيام برحلة شاقة محفوفة بالخطر من موسكو فى الغرب إلى جزيرة سخالين فى أقصى شرق روسيا عبر سيبيريا كلها، قاطعا عشرة آلاف كيلو متر بالقطار والسفينة والقوارب وخيول البريد والعربات الصغيرة، متعرضا لمخاطر الغرق والبرد والضياع لكى يصل إلى جزيرة سخالين، «أرض المعاناة التى لا تطاق» - كما قال عنها - ويستقصى أحوال السجناء والمنفيين هناك ليقدم بعد ذلك دراسة سوسولوجية أدبية مذهلة بعنوان «جزيرة سخالين» (١٨٩٣ - ١٨٩٤). وخلال هذه الرحلة أصيب تشيخوف بمرض الدرن الرئوى الذى كان السبب فى رحيله المبكر عن العالم.

ويمكن القول أن هذه الرحلة الطويلة (٩ أشهر) والبؤس والفضاعة التي رآها تشيخوف ولمسها بنفسه في سجون ومنافى تلك الجزيرة التعيسة وأثمرت روايته القصيرة «عنبر رقم ٦» (١٨٩٢) قد هزت كيانه الكاتب وغيرت مجرى حياته. فعندما عاد إلى موسكو قرر الانتقال إلى الريف، واشترى عام ١٨٩٢ ضيعة «ميليخوفو» على بعد ٧٠ كيلو مترا من موسكو، وشرع في غرس البستان وترتيب البيت وبناء المرافق، وأمضى هناك سبع سنوات قام خلالها بعلاج الفلاحين ومكافحة الكوليرا وبناء المدارس على حسابه الخاص وجمع التبرعات لمنكوبى المجاعة من الأطفال، وبالطبع زاول الكتابة. وفي هذه الفترة وما بعدها حتى وفاته (١٩٠٤) أبدع تشيخوف أعمالا رائعة مثل «رواية رجل مجهول» و«الراهب الأسود» و«الطالب» وروايته القصيرة الجميلة «حياتى» و«ثلاث سنوات» و«المنزل ذو العلية» ورواية «الفلاحون» وقصة «السيدة صاحبة الكلب» و«حبوبة» وآخر قصصه «العروس»

وفي عام ١٨٩٨ اضطر تشيخوف إلى ترك بيته وضيعته في «ميليخوفو» لاشتداد وطأة المرض عليه، وانتقل إلى شبه جزيرة القرم على البحر الأسود لجوها الدافئ المشمس، واشترى قطعة أرض قرب مدينة «يالطا» وشيد فيها منزلا صغيرا أبيض على مقربة من البحر، وغرس بستانا جديدا وضع غرساته كل رفته وحنانه وحنينه إلى موسكو الحبيبة. وككل شيء تلمسه أنامل تشيخوف تحولت تلك البقعة الجرداء المقفرة إلى واحة صغيرة يانعة جذبت إليها الوافدين الكبار إلى القرم وفي مقدمتهم عميد الأدب الروسى آنذاك ليف تولستوى، ونجمه البارز مكسيم جوركى، والكتاب الجدد: كوبرين وكورلنكو وبونين وغيرهم من الفنانين والأدباء البارزين.

فى هذه الفترة أيضا قدم أنطون تشيخوف للمسرح أعماله المعروفة «النورس» و«الخال فانيا» و«الشقيقات الثلاث» و«بستان الكرز» وغيرها من المسرحيات الأقل شهرة والأعمال ذات الفصل الواحد والفودفيل.

ورغم ذلك كانت «الطا» بالنسبة له سجنا ومنفى ، كما قال . وكان يتابع بالرسائل والبرق أخبار مسرحياته المعروضة فى موسكو ويصارع المرض وحده فى البيت البارد المظلم فى ليالى الشتاء برباطة جأش نادرة وأمل فى المستقبل ؛ رغم أنه - كطبيب - كان يدرك دنو أجله المحتوم .

وفى يونيو ١٩٠٤ تدهورت صحته بشدة فسافر إلى ألمانيا للعلاج فى منتجع «بادن فيلر» حيث وافته المنية فى ١٥ يوليو ١٩٠٤ ، وكانت آخر كلمات لفظها قبيل وفاته : «Ich sterbe...» (إننى أموت - بالألمانية) . .

جاء تشيخوف الفنان إلى دنيا الأدب حاملا رؤية جديدة ترتدى ثياب الفكاهة والسخرية ، ومفهوما جديدا عن «المضحك» لا باعتباره شيئا كوميديا ، بل باعتباره تراجيكوميديا ؛ يجمع بين البسمة والسخرية والحزن ، وهذا ما ميزه عن بقية الكتاب الروس . أما المأساة عنده فليست فى وقوع شئ فاجع خارق ، بل فى عدم وقوع أى شئ وبقاء الأمور كما هى عليه ! إنه يقدم أبطاله دون تزويق أو ستر لعيوبهم وضعفهم لأنه يؤمن بأن «الإنسان سيصبح أفضل عندما تظهرون له ما هو عليه» دون استدرار للشفقة أو اللجوء إلى «الكذب السامى» . من هنا يتسم أسلوب تشيخوف بالموضوعية الصارمة ، التى قد تبدو نوعا من البرود تجاه مصائر الأبطال . ويتعد تشيخوف عن العبارات الطنانة والميلودراما ، ويلتزم التحفظ الذى لا يفصح عن موقف الكاتب للوهلة الأولى ، لأنه يعتبر ذلك أكثر إقناعا للقارئ ، فقد كان تشيخوف يحترم عقل القارئ ويثق فى فطنته . ويهتم تشيخوف اهتماما بالغا بالتفاصيل كمفتاح للإيجاز والتكثيف السردي ، وهو الإنجاز الكبير الذى حققه تشيخوف فى مجال الأسلوب . وهذه التفاصيل قد يرسم القليل منها صورة كاملة للشخصية وقد تبلغ بالعمل الأدبى درجة التوتر النفسى والشحن العاطفى التى يريد الكاتب إيصالها

إلى القارئ، ولذا يرقى بالتفصيل أحيانا إلى مستوى الرمز (كالنورس المقتول في مسرحية «النورس»).

فليس غريبا إذا أن يقول تولستوى: «إن تشيخوف هو بوشكين في النشر. إنه فنان لا مثيل له» ويضع تولستوى العظيم يده على مفاتيح لغز تشيخوف كمجدد فيقول: «بفضل صدقه صاغ تشيخوف أشكالا كتابية جديدة كل الجدة، بالنسبة للعالم كله، على ما أعتقد، أشكالا لم أجد لها مثيلا في أى مكان». وعن فكاهية تشيخوف، وأسلوبه عامة، يقدم تولستوى هذا التحليل المدهش: «كان تشيخوف يجيد إلى درجة الكمال، تحويل الموضوع كوميدياً، وتنويع الأشكال الفكاهية المؤثرة. لقد كان بارعا في اختراع المواضيع وتقديم بدائل لا نهائية للموضوع الواحد - وكان ينوع في استخدام الأشكال البنيوية المضغوطة. . لقد كان يعرف فن الصورة الموجزة واستخدام التفاصيل بشكل معبر. . وكان يلجأ على نطاق واسع إلى الحوار الحى الموحى مع التعبيرات الفكاهية للغة الكلام الدارج دون أن يهرب من الكاريكاتير المركز، مستخدما بكثرة المبالغات والألقاب الساخرة. .»

كان تشيخوف يتوخى البساطة والدخول مباشرة فى الموضوع، ويكره البناء المعقد للعمل الأدبى وكان شعاره «كلما كان الموضوع أبسط كان ذلك أفضل»، ولكن ذلك لم يكن على حساب عمق التحليل والتعبيرية السيكلوجية وبروز ملامح الشخصيات والأماكن، حتى شاع تعبير «الشخصية التشيخوفية» عندما تصادف فى الحياة شخصية تكاد تكون نسخة حية من شخصيات روايات تشيخوف وقصصه، وكأنما أصبح المرجع فن تشيخوف لا واقع الحياة!

فى أعمال تشيخوف الروائية والقصصية والدرامية تحس - رغم تحفظ الكاتب و«حياديته» - بتعاطفه العميق مع شخصياته المعذبة وأبطاله المهانين

الذين سحقتهم الحياة بابتذالها وكآبتها، وبعطفه عليهم حتى وهو يدين ضعفهم ورذائلهم . ولم يقتصر تشيخوف فى إبداعه على تصوير المثقفين ، الأقرب إليه روحيا واجتماعيا، بل هبط إلى القاع، فقدم لنا نماذج بشرية من الفلاحين والتجار والعمال والحرفيين والأطفال ولم يقسم أبطاله إلى أشرار وأخيار (فتحت تأثير الصراع النفسى الداخلى والهزات الأخلاقية تبدل النفوس فتسمو أو تنهار أو تتبادل المواقع (رواية «المبارزة») وفى هذا التعاطف العميق مع البشر يكمن سحر تشيخوف الخاص الذى يجعل منه معاصرا بعد رحيله ومحبا إلى كل القلوب .

لا شك أن أنطون بافلوفيتش تشيخوف عبقرية مبدعة «لا مثيل لها» كما قال تولستوى، لكنها لم تظهر من الفراغ . لقد عاش تشيخوف فى وقت واحد مع ليف تولستوى العملاق الذى أثر فيه تأثيرا كبيرا فى مرحلة معينة، وكان من أساتذته معاصرة سالتيكوف - شيدرين أعظم الكتاب الروس الساخرين . وأحاطت به مجموعة من الكتاب الموهوبين الذين ذاعت شهرتهم فى حياة تشيخوف (جوركى وبونين وكورلنكو وكوبرين وغيرهم) . وكان من أصدقائه أكبر مصورى ذلك العصر ليفيتان وريبين ، وأبرز الموسيقيين الروس تشايكوفسكى ورحمانينوف وأكبر مخرج ومنظر عرفه المسرح الروسى والسوفيتى : قسطنطين ستانيسلافسكى وزميله نيميروفتش - دانتشكو . وإلى وسادة الأدب الروسى الوثيرة . . التى صنعها بوشكين وجوجل وليرمنتوف وتورجينييف ودوستويفسكى . . أسند أنطون تشيخوف ظهره، مستمدا من هذا الإرث الثقافى الضخم قوته الإبداعية الفذة .

وأخير لا نجد أفضل من كلمات الأديب المعاصر لتشيخوف - ألكسندر كوبرين - لنختم بها هذه المقدمة : « . . وبالفعل . . فسوف تمر الأعوام والقرون . وسوف يمحو الزمن ذكرى آلاف الآلاف من الأحياء

الآن، لكن الأجيال القادمة، التي كان تشيخوف يحلم بسعادتها بذلك
الحزن الساحر، سوف تردد اسمه بعرفان، وبأسى خافت على
مصيره...».

د. أبو بكر يوسف
القاهرة - يونيو ٢٠٠٧

رسالة إلى جارى العالم

قرية بلينى - سيدنى (١)

جارى العزيز مكسيم . . (نسيت كيف تدعون باسم أبيكم فأرجو سماحكم الكريم) (٢). اعذرونى واغفروا لهذا العجوز القديم ولهذه النفس البشرية الحمقاء إذ أتجراً وأزعجكم بتمتمتى الكتائية البائسة هذه . ها قد مر عام بطوله منذ أن تفضلتم فحللتكم بهذا الجزء من العالم الذى نحن فيه ، ونزلتم إلى جوارى ، أنا الإنسان الضئيل ، ومع ذلك ما زلت لا أعرفكم وأنتم لا تعرفوننى أنا الجرادة البائسة . فلتسمحوا لى أيها الجار النفيس ، ولو عن طريق هذه الهير وغلiefert العجوز ، أن أتعرف بكم ، وأن أشد فى الفكر على يدكم العالمة وأهنتكم بالقدوم من سانت بطرسبرج إلى قارتنا غير الجديرة ، المسكونة بالموجيك والناس الفلاحين ، أى بعنصر العامة . ومن زمان وأنا أبحث عن مناسبة للتعرف بكم ، وكنت متعطشا إلى ذلك ، لأن العلم الذى هو إلى درجة ما أمتنا الحبيبة ، هو والحضارة شىء واحد ، ولأننى أحترم من صميم القلب أولئك الأشخاص الذين تدوى أسماؤهم الشهيرة وألقابهم المتوجة بهالة المجد الدائع وبأكاليل الغار والصنوج والأوسمة والأشرطة والشهادات فى جميع أنحاء هذا العالم

(١) اسم من اختراع المؤلف للسخرية والدعابة ويعنى «الشطائر أكلت» - (المعرب).

(٢) تقتضى تقاليد المخاطبة الروسية مخاطبة الشخص باسمه واسم أبيه للاحترام - (المعرب)

الكونى الظاهر والخافى أى ما هو تحت القمر . إننى أحب حبا لاهبا
 الفلكيين ، والشعراء ، والميتافيزيقيين ، والبريفات دوستى^(١) ،
 والكيميائيين وغيرهم من سدنة العلم الذين تنسبون أنفسكم إليهم من
 خلال حقائقكم الذكية وحقول علومكم ، أى المنتجات والثمار . ويقال
 إنكم طبعتم كتباً كثيرة خلال جلوسكم الذهنى مع الأنابيب ومقاييس
 الحرارة وكومة من الكتب الأجنبية ذات الرسوم المغرية . ومنذ قريب جاء
 إلى أملاكى الحفيرة ، إلى أطلالى وخرائبى ، مكسيموس بونتيكس^(٢)
 المحلى ، الأب جيراسيم ، وأخذ بتعصبه المعهود يسب ويلعن أفكاركم
 وتفكيركم بخصوص أصل الإنسان وغيره من ظواهر العالم الظاهر ، وهاج
 وثار ضد مجالكم الذهنى وأفقكم الفكرى المغطى بالكواكب المنيرة
 والشهاب^(٣) . وأنا لا أوافق الأب جيراسيم بخصوص أفكاركم الفكرية ،
 لأننى لا أعيش ولا أتغذى إلا بالعلم الذى وهبته العناية الإلهية لجنس بنى
 الإنسان لاستخراج الفلزات الثمينة واللافلزات والجواهر من باطن العالم
 الظاهر والخافى ، ومع ذلك فلتعذرونى ، يا أبتاه ، أنا الحشرة التى لا تكاد
 تبين ، إذا ما تجاسرت فدحضت بأسلوب العجائز بعض أفكاركم
 بخصوص طبيعة الطبيعة . لقد أخبرنى الأب جيراسيم بأنكم فيما يبدو
 ألغتم مؤلفاً تفضلتم بأن عرضتم فيه أفكاراً غير جوهرية بالمرّة بخصوص
 البشر ونشأتهم الأولى وكيونتهم قبل الطوفان . وتفضلتم فألغتم بأن
 الإنسان هو من نسل قبائل القروذ والنسانيس والأورانجوتان^(٤) وما شابه .
 سامحونى أنا العجوز ، فإننى لست متفقاً معكم بخصوص هذه النقطة
 المهمة وبوسعى أن أضع أمامكم عقدة . فلو أن الإنسان ، سيد العالم ،

(١) بريفات دوستى : الأستاذ المساعد من خارج هيئة التدريس - (المغرب) .

(٢) الحبر الأعظم - (معرفة عن اللاتينية) .

(٣) تحريف كلمة : «الشهب» للسخرية من جهل كاتب الرسالة ، حيث أورد تشيخوف
 الكلمة محرفة - (المغرب) .

(٤) إنسان الغابة ، نوع من القرودة العليا الشبيهة بالإنسان - (المغرب) .

أذكى المخلوقات المتنفسة، جاء فى الأصل من قرد غبى جاهل، لكان لديه ذيل وصوت متوحش. ولو أننا جئنا فى الأصل من القردة، لكان الغجر يسوقوننا الآن فى المدن للفرجة، ولدفعنا نقودا مقابل الفرجة على بعضنا البعض ونحن نرقص بأمر الغجرى أو نجلس خلف القضبان فى حديقة الحيوانات. وهل يغطى الشعر أجسامنا كلها؟ ألا نرتدى الثياب، التى ليست لدى القروء؟ وهل كنا نحب المرأة ولا نحتقرها لو فاحت منها ولو قليلا رائحة القردة التى نراها كل ثلاثاء لدى رئيس النبلاء؟ ولو أن أسلافنا كانوا من نسل القروء لما دفنوا فى المقابر المسيحية. إن والد جدى أمفروسى، مثلا، الذى عاش فى زمنه فى المملكة البولندية، قد دفن لا كقرد، بل إلى جوار العباد الكاثوليكى يواقيم شوستاك الذى يحتفظ أخى إيفان (الرائد) حتى الآن بمذكراته عن المناخ المعتدل والتناول غير المعتدل للمشروبات الكحولية. والعباد تعنى القس الكاثوليكى. فلتعذرونى أنا الجاهل لتدخل فى شؤونكم العلمية وحديثى بطريقتى، بأسلوب العجائز، وفرضى عليكم أفكارى المشوهة والفظة، التى تكون لدى العلماء والقوم المتحضرين فى مكان أقرب إلى البطن منه إلى الرأس. ولكنى لا أقوى على الصمت ولا على الصبر عندما يفكر العلماء تفكيراً خاطئاً فى عقولهم ولا يمكننى إلا أن أعارضكم. لقد أخبرنى الأب جبراسيم أنكم تفكرون تفكيراً خاطئاً بخصوص القمر، أى الهلال، الذى يعوضنا عن الشمس فى ساعات الظلام والعتمة، حين يكون الناس نياماً، بينما أنتم تنقلون الكهرباء من مكان إلى آخر وتعملون الخيال. لا تضحكوا منى، أنا العجوز، لأننى أكتب بهذه الصورة الغبية. إنكم تكتبون أن القمر، أى الهلال، يعيش ويقطن فيه بشر وقبائل. وهذا لا يمكن أن يكون أبداً، لأنه لو كان الناس يعيشون على القمر لحجبوا عنا نوره الساحر والفاتن بمنازلهم ومراعيتهم الكثيفة. وبدون المطر لا يستطيع الناس أن يحيوا، والمطر يسقط إلى أسفل على الأرض وليس إلى أعلى، على القمر. ولو عاش الناس على القمر لسقطوا إلى أسفل على الأرض، ولكن ذلك

لا يحدث ، ولا نهالت القاذورات والمخلفات من القمر المسكون على
يابستا . وهل يمكن للبشر أن يعيشوا على القمر إذا كان لا يوجد إلا ليلا ،
وفي النهار يختفى ؟ كما أن الحكومات لن تسمح بالعيش على القمر لأنه
بسبب بعد المسافة وعدم إمكانية بلوغه ، يمكن الاختفاء فيه من المسألة
بكل سهولة . إنكم أخطأتم قليلا . لقد ألقتم ونشرتم فى مؤلفكم الذكى ،
كما قال لى الأب جيراسيم ، كما لو أنه توجد على أعظم الكواكب المنيرة ،
الشمس ، بقع سوداء . وهذا لا يمكن أن يكون لأن هذا لا يمكن أن يكون
أبدا . كيف أمكنكم أن تروا على الشمس بقعا . إذا كان من غير الممكن
النظر إلى الشمس بالعيون البشرية العادية ، وما الداعى لأن تكون عليها
بقع إذا كان من الممكن الاستغناء عنها ؟ ومن أى جسم رطب صنعت هذه
البقع ذاتها إذا كانت لا تحترق ؟ وربما ، حسب رأيكم ، تعيش الأسماك أيضا
على الشمس ؟ اعذرونى أنا المخدر المسموم على هذه المزحة الغبية ! فأنا جد
مخلص للعلم ! والروبل ، شعار القرن التاسع عشر هذا ، ليس له عندى أى
ثمن ، فقد حجب العلم عن عيني بأجنحته اللاحقة . كل اكتشاف يعذبني
كأنه مسمار فى ظهري . ورغم أننى جاهل ومالك أطيان دقة قديمة ،
فإننى ، أنا المستهتر العجوز ، أشتغل بالعلم والاكتشافات التى أصنعها
بيدى ، وأملأ رأسى الأخرق ، جمجمتى المتوحشة ، بالأفكار وبطاقم من
أعظم المعارف . وأما الطبيعة هى كتاب ينبغى أن نقرأه ونراه . وقد أنجزت
بعقلى الخاص الكثير من الاكتشافات التى لم يخترعها أى مصلح حتى
الآن . وأقولها بلا مبالاة ، إننى لست من الأواخر فيما يخص التعليم الذى
حصلت عليه بالأصابع المشققة من الكد وليس بثروة الوالدين ، أى الأم
والأب ، أو الوصاة الذين كثيرا ما يقضون على أنبائهم بالثروة والرفاهية
والمساكن من ستة طوابق بالجوارى والأجراس الكهربائية . وهاكم ما
اكتشفه عقلى البخس . لقد اكتشفت أن شمسنا العظيمة النارية المشعة
والمشعثة تضيء بلوحة من شتى الألوان الملونة فى الصباح الباكر من يوم
الفصح المقدس ، وترك بوميضها المدهش انطبعا لعوبا . واكتشاف آخر .

لماذا يكون النهار فى الشتاء قصيرا والليل طويلا، والعكس صيفا؟ اليوم فى الشتاء قصير لأنه مثل باقى المواد الظاهرة والخفية، ينكمش بالبرودة، ولأن الشمس تغرب مبكرا، والليل بفعل أزيز اليراعات المضئية والمصابيح يتمدد لأنه يذفاً. ثم اكتشفت أيضا أن الكلاب فى الربيع تأكل العشب مثل الغنم، وأن القهوة مضرّة لأصحاب المزاج الدموى لأنها تحدث فى الرأس دوارا وفى العينين لونا عكرا. وما شابه ذلك وخلافه. لقد أنجزت اكتشافات كثيرة غير هذه، رغم أنى لا أحمل شهادات أو تقديرات. تعالوا زورونى يا جارى العزيز، أستحلفكم بالله. وسنكتشف معا شيئا ما، ونشتغل بالأدب فتعلموننى أنا الوضع مختلف الحسابات. لقد قرأت من وقت قريب عند أحد العلماء الفرنسيين أن بوز الأسد لا يشبه أبدا الوجه البشرى كما يظن العلماء. وعن هذا أيضا ستحدث، تعالوا لو تكرمتم. تعالوا ولو غدا مثلا. إننا الآن نتناول طعام الصيام ولكن سنعد لكم طعام الإفطار. وقد طلبت ابنتى نتاشنكا منكم أن تجلبوا معكم كتباً ذكية ما. إنها عندي متحررة، والجميع فى نظرها أغبياء وهى وحدها الذكية، الشباب، ودعنى أقل لكم، يفصح عن نفسه، وفقهم الله! بعد أسبوع سيأتى إلى أخى إيفان (الرائد)، وهو شخص طيب، ولكن فيما بيننا أقول إنه بوربون^(١) ولا يحب العلوم. هذه الرسالة سيحملها لكم حامل مفاتيحي تروفيتم فى تمام الساعة الثامنة مساء. فإذا جاء بها متأخرا فلتصفعه على خديه على طريقة الأساتذة، فلا داعى للكلفة مع هذه القبيلة. فإذا جاء بها متأخرا فمعناها أنه عرج على الحانة، هذا الملعون. إن عادة زيارة الجيران لم نبتدعها نحن، ولسنا نحن من سنيهيها، ولذا تعالوا من كل بد بآلاتكم وكتبكم. كان بودى أن أتى إليكم لكننى خجول للغاية وتعوزنى الجرأة. فلتعذرورنى أنا المستهتر على الإزعاج.

أبقى على احترامى لكم،

صف ضابط متقاعد بقوات الدون من النبلاء، جاركم

فاسيلى سيمى - بولاتوف

(١) فظ جاهل - (المعرب).

فرحة

كانت الساعة الثانية عشرة ليلاً .

اندفع ميتيا كولداروف إلى شقة والديه منفعلًا منفوش الشعر، ومضى يروح ويعجىء بسرعة في جميع الغرف . وكان الوالدان قد أويا إلى الفراش . ورقدت أخته في سريرها تقرأ آخر صفحة في الرواية . أما إخوته التلاميذ فكانوا نائمين .

وقال والداه بدهشة :

- من أين جئت؟ ماذا بك؟

- أوه، لا تسألًا! لم أتوقع أبداً ذلك! كلا، لم أتوقعه أبداً! إنه . . إنه غير معقول!-

وقهقه ميتيا، وجلس في الفوتيل وهو لا يقوى على الوقوف من فرط السعادة .

- هذا غير معقول! لا يمكن أن تتصوروا! انظروا! قفزت أخته من الفراش، وأسدت على كتفيها البطانية واقتربت من أخيها . واستيقظ التلاميذ .

- ماذا بك؟ إنك شاحب جداً!

هذا من الفرحة يا ماما! فالآن أصبحت روسيا كلها تعرفني! كلها! من

قبل لم يكن أحد غيركم يعرف أنه يوجد في الدنيا المسجل الاعتباري^(١)
ديمتري كولداروف، أما الآن فروسيا كلها تعرف ذلك! ماما! يا إلهي!
قفز ميتيا، وجرى في غرف البيت ثم عاد إلى مجلسه.

- ولكن ماذا حدث؟ هل أوضحت لنا!

- إنكم تعيشون كالوحوش البرية، لا تقرؤون الصحف، ولا تهتمون
أبدا بما ينشر، بينما في الجرائد أشياء رائعة! فإذا حدث شيء يصبح معروفا
على الفور، ولا يخفى أبدا! كم أنا سعيد! يا إلهي! الجرائد لا تكتب إلا
عن مشاهير الناس فقط، وإذا بهم فجأة يكتبون عني!
- ماذا تقول! أين؟

امتقع الأب. ونظرت الأم إلى الأيقونة ورسمت علامة الصليب. وقفز
التلاميذ في قمصان النوم القصيرة فقط واقتربوا من أخيهما الأكبر.

- نعم! كتبوا عني! الآن تعرفني روسيا كلها! خبئي يا ماما هذا العدد
واحتفظي به للذكرى! سوف نقرأه أحيانا. انظروا!

وأخرج ميتيا من جيبه عددا من جريدة وأعطاه لأبيه وهو يدس إصبعه
في موضع محاط بخط قلم أزرق.
- اقرأ!

وارتدى الوالد النظارة.

- هيا اقرأ!

ونظرت الأم إلى الأيقونة ورسمت علامة الصليب. وتنحج الأب
وشرع يقرأ:

- «في ٢٩ ديسمبر، في الساعة الحادية عشرة مساء كان المسجل

الاعتباري ديمتري كولداروف..»

(١) المسجل الاعتباري رتبة من أدنى الرتب المدنية في روسيا القيصرية. (المعرب).

- هل رأيتم؟ هل رأيتم أكمل!

- . . كان المسجل الاعتبارى ديمترى كولداروف خارجا من الحانة الواقعة فى شارع مالايا برونايا، فى منزل كوزيخين، وهو فى حالة سكر . .

- شربت مع سيميون بتروفتش . . وصفوا حتى أدق التفاصيل! أكمل! بعده! اسمعوا!

- وهو فى حالة سكر فزلت قدمه وسقط تحت حصان حوذى كان واقفا هنا، ويدعى إيفان دروتوف من قرية درويكينا بناحية يوخنوف . وذعر الحصان فخطا من فوق كولداروف وسحب من فوقه الزحافة التى كان جالسا فيها ستيبان لوكوف التاجر من الدرجة الثانية بموسكو، وانطلق عبر الشارع وتمكن البوابون من الإمساك به . ونقل كولداروف الذى كان فاقد الوعي إلى قسم الشرطة حيث أجرى له كشف طبي . واتضح أن الضربة التى تلقاها فى مؤخرة رأسه . .

- إنها من اصطدامى بذراع الزحافة يا بابا . أكمل، اقرأ بعد ذلك!

- . . التى تلقاها فى مؤخرة رأسه تعتبر من الضربات الخفيفة . وقد تم تحرير محضر بالواقعة . وأجرى للمصاب إسعاف أولى . . «

- نصحونى بأن أبلل مؤخرة رأسى بالماء البارد .

حسنا، هل رأيتم؟ هه؟ هكذا! الخبر الآن يتتشر فى روسيا كلها! هات الجريدة!

وخطف ميتيا الجريدة وطواها، ودسها فى جيبه .

- سأسرع إلى آل هكاروف لأريها لهم . . ينبغى أن أريها أيضا لآل إيفانيتسكى، ولتاليا إيفانوفنا، ولأنيسيم فاسيليتش! أنا ذاهب! وداعا! وارتنى ميتيا العمرة ذات الشريط المعقود وانطلق إلى الشارع منتشيا فرحا .

وفاة موظف

ذات مساء رائع كان إيفان ديمتريفيتش تشرفياكوف، الموظف الذى لا يقل روعة، جالسا فى الصف الثانى من مقاعد الصالة، يتطلع فى المنظار إلى «أجراس كورنيفيل». وأخذ يتطلع وهو يشعر بنفسه فى قمة المتعة. وفجأة.. وكثيرا ما تقابلنا «وفجأة» هذه فى القصص. والكتّاب على حق، فما أحفل الحياة بالمفاجآت! وفجأة تقلص وجهه، وزاغ بصره، واحتبست أنفاسه.. وحول عينيه عن المنظار وانحنى و.. أتش!!! عطس كما ترون. والعطس ليس محظورا على أحد فى أى مكان. إذ يعطس الفلاحون، ورجال الشرطة، بل وحتى أحيانا المستشارون السريون. الجميع يعطس. ولم يشعر تشرفياكوف بأى حرج، ومسح أنفه بمنديله، وكشخص مهذب نظر حوله ليرى ما إذا كان قد أزعج أحدا بعطسه. وعلى الفور أحس بالحرج. فقد رأى العجوز الجالس أمامه فى الصف الأول يمسح صلخته ورقبته بقفازة بعناية ويدمدم بشيء ما. وعرف تشرفياكوف فى شخص العجوز الجنرال بريزجالوف الذى يعمل فى مصلحة السكك الحديدية.

وقال تشرفياكوف لنفسه: «لقد بللته. إنه ليس رئيسى، بل غريب، ومع ذلك فشئ محرج. ينبغى أن أعتذر». وتنحى تشرفياكوف ومال بجسده إلى الأمام وهمس فى أذن الجنرال:

— عفوا يا صاحب السعادة، لقد بللتكم.. لم أقصد..